9 نموذجي

2023

أصوات الحياة

2024

يمنى داي

1/أين أعيش؟

وُلدتُ و نشأتُ في شارع مريع، هو ممرّ مظلمٌ ومخيفٌ في قلب أحد الأحياء الفقيرة لمدينة صغيرة نسيها الزّمنُ والحظ الجيد... يظهر هذا الشّارع كلَّ ليلة كمشهدٍ سيّء من "فِلم" رعب. كلُّ من يمرّ منه يَعجب من المساكن المهدَّمة المهجورة الّتي تبدو وكأنّها أطلالُ حضارةٍ فاسدة. النّوافذ المكسورة والأبواب المُحطّمة شاخِصَةٌ كأشباح تراقب المارّة بعيونها الفارغة.

ليس هناك سوى القليل من الضوء في هذا الشّارع المقفر، ومعظمُه يَشغله الظّلام المرعب. تتجوّل فيه أسرابٌ من الكلاب المشرَّدة، أحيانًا تكون مخلوقاتُ اللّيل هي الوحيدة التي ترضى بالبقاء في هذا الجحيم المظلم.

لا يمكن أن تُسمَعَ غَيْرُ الأصوات المخيفة تحتضن الصّمت. يبدو أنّ سُرّاقَ اللّيل والمجرمين هم السّادة الحقيقيّون لهذا الشارع الملعون، حيث ينتشرون في زواياه المظلمة، جاهزين لشنّ هجماتهم في أيّ لحظة.

لا يمكن أن ننسى أيضًا عصابات قطّاع الطرق الّذين يجوبون هذا الشّارع المرعب، مستعدّين لنهب أيّ شخصٍ يجرؤ على المرور. الأنفاس ترتفع بسرعة، والقلوب تنبض بشكل مخيف في هذا المكان الذي يعدّ تخطّيه اختبارَ شجاعةٍ. فحتّى رجال الشّرطة لا يجرؤون على اقتحامه لا ليلا و لا نهارا، ومن يغامر منهم بالتّرجل عند مشارف الحيّ فإنّه يلقى ترحيبًا من نوعٍ خاصّ لا يفكّر بعده في تثنية الزّيارة...

في الثّالثة صباحًا، أعيد ترتيب الصّور، وَفْقا لذاكرتي و"ألبوماتي"... يسقط الشّارع بأكمله ككتلة صمّاءَ، مشلولةٍ، عديمةِ الملامح، وخاليةٍ من كلّ معنًى، يسقُط منكسرا، بحوانيتِه الموصَدة، وإشاراته المروريّة العالقة على التّقاطعات مثل بقايا ذكرى مؤلمةٍ لا لزومَ لها.

تأخذني الطّريق المعتادة إلى بوّابة مقفلةٍ، غارقةٍ في العتمة والفراغ، فأواصل السّير ببطء حتّى يعلُوَ الصّراخ خلفي دون أن أقدر على رؤية شيء. أنطلق مسرعا، و أشعر بأشخاصٍ ورائي يلاحقونني... قطيع من الأموات يركض خلفي، بوجوه حانقة، ملطّخة بالدّماء، يحاولون سرقة ما لديّ من دراهمَ

معدودة، و يستغلّون فقداني لبصري. بضائع كثيرة، راح أغلبها يتساقط عن تلك الأجساد ويَضيع في غمرة الطّريق، تعثّر أغلبهم بها، وأنا نجوت منهم بأعجوبة. وقد كانت حياتي دائما هكذا...

أسلك طريقا جديدة، لا أعرفها، تنتابُني فيها أفكارٌ متداخلةٌ، طريقٌ فرعيّةٌ ومظلمةٌ، تحفّها أبنية مرتفعةٌ قديمة، أجتازها مسرعا قبل أن تتداعى فوقي لفرط ما عرَاها من نعاس.

2/ كيف ولدت؟

هل تدري كيف يكون إحساس ورقة الشّجر في مهبّ الرّيح؟ لاهي تمسّكت بغصنها الفتيّ وظلّت شامخة في عليائها، ولا هي تهاوت إلى أديم الأرض لتجفّ و تتحلّل ثمّ تواصل حياة أخرى مطمورة تحت الثّرى، تظلّ متأرجحة، تتخبّط في عجز، لا تملك من أمرها شيئا، وجلُّ ما ترجوه هو أن تلفظَها الرّياح قريبا علّها تحظى ببعض السّكينة... و لو في العدم.

هل شعرتَ بهذا الإحساس؟

رأى العالم لأوّل مرّة نور طفل يملك قلبًا مليئًا بالحبّ والبراءة، ولكن على خلاف معظم الأطفال، وُلدتُ بعينين عليهما غشاوة سوداء تحول بيني وبين عالم الألوان والأشكال. كانت تلك اللّحظة هي بداية رحلة طويلة من الأسى والعذاب...

ولِدتُ أعمى، لم يكن سماع الخبر لأوّل وهلةٍ ذلك اليوم سهلاً على والديّ، فقد كان يوماً مليئا بالفرح والأمل لقدوم مولودِهما الجديد، ولكن سرعان ما لفَّ هذا الفرح ديجورٍ قاسٍ... لقد علم والداي أنني لن أشهد عجائب العالم بألوانها وأشكالها، ولن أكون قادرا على رؤية وجوه من أحبّ.

ورغم ألمهما العميق وحزنهما الشّديد، لم يستسلما لليأس. بالعكس، قرّرا بسرعة أن يكونا بجانبي، وأن يمدّا أيديَهما ليحملاني في هذه الرّحلة الصّعبة... كانت حياتي تحدّياً بلا حدود، خاصّة و أنّي كنت من عائلة فقيرة عاجزة، وأسكن في شارع ذي سمعة سيّئة، وكان عليّ أن أعتمد على حواسّي الأخرى بشكل أكبر وأعمق، حيث تحوّل الصّمت إلى لغة واللّمس إلى فنّ، والشّمّ إلى قصّة.

تعلّمت كيفيّة السّير في هذا العالم الّذي لا يُرى إلاّ بالعيون، وكيفيّة استشعار الأشياء من حولي بقلب مفتوح. تغيّرتُ ببطء، مع كلّ يوم يمرّ. كان ذلك محفّزًا لاستكشافٍ أعمقَ للحياة ولتقديرِ جمال اللّحظات الصّغيرة.

وما زالت عائلتي، رغم الخصاصة التّي أحاطت بها، تمثّل الرّكيزة القويّة الّتي تدعمني في هذا العالم المظلم، بحبٍّ وإصرارٍ، يظلاّن مصدر قوّتي وإلهامي.

3/ وضعيّة عائلتي

كانت عائلتي تعيشُ فقرًا مُدْقِعًا لا نملك معه أن نوفّر احتياجاتنا الأساسيّة. وكان والدي يعمل بجدّ واجتهادٍ، في المصنع القريب من منزلنا، لكن الأجر الزّهيد الذي يتقاضاه لم يكن كافيا لتلبية متطلّبات الأسرة.

لقد جعلت حالتُنا الماديّة المزريةُ الحياةَ صعبة للغاية، ولكن بينما كانت الجيوب خالية من الأموال، كانت قلوبنا مليئة بالأمل والإصرار والعزيمة. نحن لم نَتُه في ظلام الفقر، بل نشأنا فيه لنقرّر أن نكون أقوى منه. لذا بدأت أبحث عن فرص عمل صغيرة في سنّ مبكّرة لأساهم في دعم عائلتي. ولكنّي لم أحظَ بالتّوفيق لأنّي كنت في نظر الجميع أعمى، عاجزا... آهٍ !!! ليتني أستعيد بصري.

4/تعليمي

تعليمي في مدرسة المكفوفين كان ركيزةً حاسمةً في مسيرتي. عندما التحقتُ بتلك المدرسة، انبهرتُ بأنّني لم أكن وحدي في هذه الرّحلة، بل كنت محاطًا برفاق شجّعوني على تحقيق النّجاح رغم التّحدّيات. في تلك الأيام، تعلّمت تقنيات القراءة والكتابة بـ"البرايل"، واستمَدَدْتُ الإلهام للمضيّ قُدمًا. ولكنّ الاكتشاف الأبرز كان أثناء تلاوتي وحفظي لكلام الله. كنت أشعُرُ بصوت مميَّز ينبعث من داخلي بأسلوب يجمع بين الجمال والرّقّة. لم يكن هذا الصوت مجرد تلاوة عاديّة، بل كان فنًّا يمكن تطويره واستثماره بشكل أكبر.

و بما أنّني أعتمد على حاسّة السمع بشكل دائم، قرّرتُ أن أنمّي هذه الموهبة باستمرار، فبدأت بالعمل على تحسين تلاوتي من خلال هذا الصّوت الفريد.

هذا الاكتشاف العظيم لموهبتي أعطاني قوّة جديدة للتّأثير والتّواصل والتّعبير. صوتي لم يكن فقط وسيلة للتّلاوة، بل أصبح يحمل رسالة ذاتَ معاني عميقة ومشاعر مؤثّرة، منها بدأت رحلتي نحو استكشاف إمكانياتي بشكل أعمق وتحقيق أهدافي بثقة وإصرار.

وهنا بدأت أستمع الى الموسيقى التي مثّلت نقطة تحوّل في حياتي... كنت أُمضي سويعات النّهار أنصت في اهتمام إلى مقطوعات "بتهوفن" و "موزارت" و "باخ"، فكنت كأنّي أرى العلامات الموسيقيّة وأشعر بأنّي أغوص في بحر من الأنغام و الألحان. وفعلا، فقد أصبحت عاشقا متيَّما بهذه الموسيقى، ولشَدّ ما أحببت مقطوعات "البيانو"، فكأنّ عازفها ماثل أمامي يحرّك أنامله في خفّة ورشاقة، وكانت هذه الألحان كما لو أنّها همسات جميلة تمرّ من أذنيّ بحنان ورقّة، حتّى تلامسَ أوتار القلب وتثير مشاعر الجمال والرّقّة عندما تتراقص الأصوات الشّجيّة بين المفاتيح...

5/الموسيقى و علاقتي بها

الموسيقى هي لغة الرّوح التي تمتلك القدرة الفريدة على إحياء ذكرياتي وصياغة عواطفي بألوان وأصوات لا يمكنني التّعبير عنها بالكلمات وحدها. تطرق الموسيقى أبواب القلب، وتخترق أسوار العقل، وتعيد ترتيب أفكاري ومشاعري...

عندما أستمع إلى مقطوعة موسيقية جميلة، ينغمس جسدي وروحي في عالم آخر. و قد كانت صديقًا لي دائمًا في وحدتي. إنّها ليست مجرد أصوات وإيقاعات، بل هي روح الإبداع والإنسانيّة في عالم يموج بأسباب التّوتّر والضّغوطات، لذلك تبقى الموسيقى فيه ملاذًا مريحًا ينير طريقنا ويجعل الحياة أكثر إشراقًا وبهاءً.

حقيقة الموسيقى تحادث القلوب مباشرةً دون أن تقف على فكرة، تندمج مع النّبضات وتتسابق مع المشاعر، الموسيقى لغة الأعماق، لغة العصافير، لغة الجمال المطلق، لغة العالم التي يفهمها الجميع،

ويطرب لها الجميع، وتتوحّد في مسامع الإنسانيّة، وحين يكتب شاعر عن الموسيقى يكتب عن لغة الإنسان المحبّ، يكتب عن الحُلم الذي يجمع القلوب على "نوتة"، وعمّا يغمس الرّوح في كؤوس السّلام، وما يدفئ ضلوعَ الكون بضمّةٍ من الألحان .

وأصبحت علاقتي بالموسيقى تجربة عاطفية وفنية تعدُّ واحدة من أعمق وأجمل علاقاتي. إنها علاقة ترتقي إلى مستوى الاختيارات والتأثير الشديد على حياتي اليومية. تقديري للموسيقى لا يقتصر فقط على الاستماع إليها، بل بدأ يمتدّ إلى العزف وإنشاء الموسيقى أيضًا.

ومع التّدريب صارت أحاسيسي وعواطفي تتراقص على وتيرة الألحان. إنّها لغتي التّعبيريّة التي تمكّنني من التّعبير عن المشاعر التي قد يكون الوصول إليها بالكلمات صعبًا. إنّها تلامس أعماق قلبي وتشعرني بنشوة عارمة.

6/الصّعوبات الّتي واجهتني

وتطايرت وُرَيقات اليوميّة، تنامت علاقتي بالموسيقى بأناقة وكأنّها نبتة جميلة تستقي طاقتها من الحبّ. بدأت هذه الرّحلة الموسيقية بتأثير سحريّ على روحي، وأثّرت بشكل عميق في طريقة تفكيري وإحساسي بالعالم من حولي.

ومع الوقت أصبح لديّ رغبة ملحّة في امتلاك آلة موسيقية تسمح لي بالتّعبير عن مشاعري وأفكاري بطريقة فريدة وشخصيّة. تلك الآلة ستكون رفيقي المخلص في لحظات الفرح والحزن، وستمنحني القوّة لاستكشاف عوالم جديدة من الإبداع الموسيقي... إنّها "البيانو".

وبالرّغم من رغبتي الجادّة، إلاّ أنّ والديَّ عارضاني معارضة شديدة، فهما يَريان أنّني مجرّدُ فتًى غير قادر على الإبصار، عاجز عن فعل أيّ شيء. كما أن الصّعوبات الماديّة وضعت حاجزا كبيرا بيني وبين حلمي فقرّرت الاستسلام للواقع... ولازمَتْ في ابتسامة ترقرقت على شفتيّ الكالحتين كما تترقرق الدمعة من العين المهمومة. واستحالت ضحكاتي المعتادة إلى زفرات معادة... استبدّ بي اليأس والكآبة والحزن فعدت إلى غرفتي أجرّ خطى الخيبة. أحسست بالحسرة والنّدم، وانهمرت الدّموع مدرارا فغسلت وجهي و قرّرت أن أنسى أنّه كان لي مع الموسيقى قصّة... هذه النهاية...

7/ شمعة الأمل لم تنطفئ بعد

وفي يوم لم يكن كسائر الأيّام حلَّ بقسمنا زائر غريب، كان رجلاً ذا هيئة بهيّة، حَسَن الكلام، يعلوه وقارٌ. وبينما كان يشاركنا الحديث، أدركنا أنّه مشرفٌ على جمعية رعاية الأيتام، وأنه يبحث عن مواهب ناشئة يمكن أن تقدِّم عرضًا موسيقيًّا للأيتام. وما أجمل الخبر، ستتكفّل الجمعيّة بجميع تكاليف العرض.

كم كنت متحمّسًا ومتردّدًا في نفس الوقت! هل ستتاح لي هذه الفرصة: التّقديم والعزف؟ هل يمكنني بالفعل تحقيق ذلك؟ شعرت بأنّ شمعة الأمل لم تنطفئ بعد، وأنّ هناك بصيصًا ضئيلًا من النّور يلوح في الأفق، ممّا جعلني متحمّسًا لاستكشاف هذه الفرصة الجديدة.

8/التّدريب و العرض

ومع التّدريب، تمكّنتُ من إتقان العلامات الموسيقيّة و"النُّوتات" على "البيانو". استخدمت حاسّة السّمع بشكل استثنائيٍّ لاستشعار الارتفاع والانخفاض والمدى الصّوتي للمفاتيح. وأصبحت قادرًا على التّمييز بسهولة بين الأصوات الموسيقيّة المختلفة وتحديدها بدقّة.

ورغم عدمِ قدرتي على رؤية العلامات الموسيقيّة على الورق، إلاّ أنّني أستطيع أن أقيّمها بدقّة تامة على "البيانو". يمكنني تخيّل "النُّوتات" الموسيقيّة بسهولة من خلال نغماتها واهتزازها، فأشعر بسعادة تغمر قلبي حماسًا ليوم العرض...

وأتى اليوم الموعود...

وصعدتُ على خشبة المسرح متوتّرًا ومتشوّقًا في آنٍ واحد...

خفتت الأنوار، وخيّم الصمت، وتلاحقت الأنفاس، فلم يُسمع في القاعة حسيسٌ، وتصاعدت من آلة البيانو نغمات الافتتاحيّة الأولى، عميقةً، رخيمةً. تجلّى اللّحن فتراخت أجفاني رويدًا رويدًا... ثمّ انسدلت حجابًا صفيقًا بين طَرْفي والعالم الخارجيّ، وإذا بي في عالم جديد، فيه نَضْرةٌ وجمالٌ، وخشوعٌ

وجلالٌ، وسموٌ عظيمٌ. تتخدّر حواسي تدريجيًا. ويدور الزمن في خلدي دوارًا مضطربًا سريعًا، فتارةً أجد نفسي في عهد الصّبا الأول أرتعُ في جنّةٍ من الزّهور والعطور والنّور، وتارةً أطارِدُ الفَراش...

مزيج من المشاعر السّحرية انتابتني وأنا على هذه الخشبة العظيمة، يراقبني جمهورٌ أنا غير قادر على مراقبته... كيف هي تعابير وجوههم؟ هل هم سعداء؟ هل هم غير راضين عن أدائي؟

لا يهمّ... فأنا أشعر برضًا يسري في داخلي سريان النّار في الهشيم وسعادةٍ غامرة.

أغمضت عيني بعد أن أتممت المقطوعة وغشّى القاعة سكون رهيب، تلته عاصفة من التّصفيق والتّشجيع...

ولم يعد بإمكاني إبقاء دموعي مكبوتة داخلي... هذه الدموع التي لطالما احتفظت بها لسنوات، الآن تنهمر بحرّيّة على وجنتيّ...

9/البرنامج التّلفزي و أستاذ الموسيقى

بعد العرض النّاجح على المسرح، بدأتْ حياتي الموسيقيّة في اتّخاذ منعطف جديد نحو الشّهرة والتّألّق. تلقّيْت دعوةً مذهلة للمشاركة في برنامج تلفزيونيٍّ واسع الانتشار يستعرضُ المواهبَ الموسيقيّة الصّاعدة. لم تكن هذه فرصةً ذهبيّةً فقط، بل كانت سفينة جدّفتْ بي إلى عالم جديد من الإمكانات والإبداع.

أثناء استعدادي للبرنامج التّلفزيّ، قابلتُ أستاذًا موسيقيًّا بارعًا وملهمًا وكان اسمه المنذر. كان شخصًا رائعًا ومحترفًا في مجاله، لديه معرفة عميقة بالموسيقى، وكان خبيرًا في مختلف اتّجاهاتها وآلاتها، ذا فهمٍ دقيقٍ "للنّوتات" والإيقاعات والهياكل الموسيقيّة. وكان، بالإضافة إلى ذلك، يُلهمني بشغفه وحبّه لفنّه، ويدعمني ويعلّمني بكلّ حبّ وتفانٍ، إذ خصَّصَ وقتًا كبيرًا لتدريبي ومساعدتي في تطوير مهاراتي الموسيقيّة. فتمكّنتُ بفضل نصائحه وتوجيهاته الرّائعة، بعد توفيق الله تعالى، من تحقيق نجاح كبير في هذا الميدان الذي أعشقه.

وكَيْ أصبح قادرا على ردّ الجميل إليه، أخذت الأمور بجدّيّة أكبر من أيّ وقت مضى، وعملت بلا كلل على تحسين أدائي وتطوير مهاراتي في العزف، لأقدّمَ أفضل ما لديّ يومًا بعد يوم، وأكونَ على استعداد تامّ لمواجهة التّحدّيات الّتي تعترض سبيلي في البحث عن فرص جديدة أنتظرها بفارغ الصّبر.

10/المسابقة... هل أنا أهل لها؟

كنت غارقا في بحر من الأفكار حين رنّ الهاتف لينتشلني من شرودي و يدعوَني بإلحاحٍ إلى الردّ. وعندما رفعت السّمّاعةَ تناهى إليّ صوت السّيد المنذر، مستعجلاً إيّايَ القدومَ وطالبًا منّي المشاركة في مسابقة مواهب العزف والغناء، فشعرت بسعادة تغمر كياني... صحيح أنّه قد انتابني توتّر شديد وشكٌّ في حقيقةِ قدراتي، لكنّي أؤمن أنّ العمى ليس حاجزا بين المرء وتحقيق مطامحه وأحلامه...

أمضيت أيّاما مضنية من التّدريب كي أجعل صوت آلتي رقيقا رفيقا يريح اللّجنة المستمعين... وكان السؤال يتردّد دائما في نفسي «المسابقة حدث مهم جدّا يمكن أن يغيّر مجرى حياتي، فهل أنا أهل لها؟»

11/ يوم المسابقة

جلست إلى البيانو و داعبته بأطراف أناملي، ثمّ مسحت عليه في رقّة وحنان، وشعرت بمجرّد ملامستي الأولى للمفاتيح بأنّ يدا خفيّة تشدّني إلى مقعدي، وبدأتِ النّغماتُ العذبةُ المتّزنةُ تنساب من بين أصابعي، وانطلق الصّوت في القاعة دافئا لطيفا بأعذب الألحان، وأظهرت للجميع أنّ أدائي متقَن بديع وأنّ لي روحًا فنّيّة وإحساسًا مرهفا رقيقا... و حلّقت أجواء الفنّ في قاعة العرض تحليقًا، وهزّت مشاعرنا هزّا، ونالت إعجاب كلّ الحاضرين والحاضرات، وانتهت المشاركة في المسابقة على أحسن ما يُتوقّع...

وحان وقت الإعلان عن النتائج. ولأكون صريحًا فإنّي، بعد أن استمعت إلى بقيّة المشاركين، فقدت الأمل في أن يكون لي مكان بين الفائزين... لم أكن قادرا على رؤية ملامح لجنة التّحكيم، لكنّي سمعت النّاطقة باسم اللّجنة تقول:

و الفائز معنا في مسابقة العزف والغناء لهذه السّنة هو: ... هيثم ...

لا أصدّق نفسي ! هذا اسمي! لقد فزت ! لقد حزت المرتبة الأولى!

تأثّرتُ بشدّة بهذا النّجاح الّذي حقّقته. كانت رحلة تحضيري وتدريبي مليئة بالتّحدّيات والشّكوك، لكنّي كنتُ أذكر قولَ أبي الطّيّب المتنبّي:

"وإذا كانت النّفوسُ كِبارًا *** تعِبتْ في مُرادِها الأجسامُ"

لذا واصلتُ، مُظْهِرًا أفضل ما لديّ، ومُتجاوِزًا العقبات والتّوتر وواثِقًا بقدراتي الفنّيّة. لقد منحني هذا الفوز والتّألّقُ ثقة أكبر في نفسي، وأكّد لي أن العمل الجادّ والإيمان بقدراتنا يمكن أن يحقّق النجاحاتِ الكبيرةَ.

وعرفت آنذاك أنّ "مُلْتَفِتًا لا يَصِل" وأنّ العمى ليس عائقًا أمام تحقيق الأحلام والمطامح. وبالفعل، استطعت تحويل تلك الصّعوبات إلى دافع لتحقيق النّجاح والتّفوق في مجال الفنّ. كانت تلك التّجربة تذكيرًا لي بأنّ الإرادة والعزيمة قادرتان على تحقيق المستحيل وتحويل الحلم إلى واقع.

*** تمّت ***

"الحياة رواية جميلة

عليك قراءتها حتى النّهاية!

لا تتوقّف أبدا عند سطر حزين...

قد تكون النّهاية جميلة!"